تقاطعات الرحلة والتاريخ من خلال مراجعة الترجمة العربية لكتاب، الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب (من القرن السادس عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين) لصاحبه رولان لوبيل / تعريب حسن بحراوي، الطبعة الأولى2017، دار الأمان، الرباط، المغرب.

Roland lebel: The French travelers to Morocco. Moroccan Exoticism in Travel Naratives, Roland le bel (Paris: Colonial and Orientalist .Bookstore Larose, 1936), 406p

د.ربيع رشيدي، أستاذ باحث في التاريخ الديني والأنثربولوجية الثقافية الرباط-المغرب

ملخص: يعتبر كتاب الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب لصاحبه رولان لوبيل (Roland le belle)، المترجم حديثا إلى اللغة العربية على يد الناقد المغربي حسن بحراوي، مصدرا مهما من مصادر التاريخ المغربي لما يحتويه من أحداث تاريخية سياسية واجتماعية وثقافية، فقد حاول صاحبه الإحاطة بجميع الرحلات الفرنسية إلى المغرب مابين القرن الخامس عشر الميلادي والربع الأول من القرن العشرين، ورغم خلفيات صاحبه الذي كان محاضرا في معهد الدراسات العليا بالرباط (Institute of High Moroccan Studies) خلال ثلاثينيات القرن الماضي، أمام طلابه الذين اختلفت مشاربهم من ضباط الاستعلامات، ومراقبين عامين وأطر إدارة الحماية حيث ستوكل إليهم مهام إدارية سامية، إلا أن الكتاب يعد مصدرا لا مناص عنه بالنسبة للباحثين في العلوم الاجتماعية وبخاصة التاريخ والأنثروبولوجيا، فصاحبه الذي أعده انطلاقا من أبحاث ميدانية سيكون له السبق في مقاربة مواضيع كان مسكوتا عنها ولم يسبق لأحد تناولها، اللهم من باب تناولها في إطار الأدب العجائبي الكولونيالي، يجول بنا رولان لوبيل عبر أرجاء المغرب من خلال تسليط الضوء على رحلات غنية بمعلومات همت الجانب الاجتماعي والسياسي والثقافي لهذا البلد من خلال إماطة اللثام على مواضيع حساسة كما هو الحال بالنسبة للوضعية السياسية للمغرب خلال فترات الصراع حول الحكم، والحياة الخاصة لسلاطين الدولة العلوية كعلاقة السلاطين بحريمهم، وكذا معاناة الأقليات كالأسرى واليهود والمغضوب عنهم من طرف الدولة. كما أسهب صاحب الكتاب في وصف حالة المغرب مقارنة بدول الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط من خلال وضعية الجهاد البحري الذي كانت تمتهنه ساكنة سلا والتجاوزات التي قام بها القراصنة في حق الدول الجوار، وفي هذا الإطار يمكن الحديث انطلاقا من هذا الكتاب إن صاحبه عبر لطلابه عن حالة التجاوز التي ظل عليها المغرب خلال ستة قرون دون أن يصلح أحوال البلاد والعباد، إن الكتاب موضوع القراءة النقدية لا يمكن أن نرتاح إلى مضانه سيما وأن الفترة التي طبع فيها تزامنت مع احتلال فرنسا للمغرب كما لا يخفى انه أعد لا ضفاء المشروعية على المشروع الكولونيالي لدولة فرنسا.

الكلمات المفتاحية: الرحلات الفرنسية، الأدب الغرائبي، أدب الرحلة، الأسرى المسيحين، اليهود المغاربة، المخزن، الأدب السياحي، الأدب الحربي، الصحافة الحربية، القرصنة، الجهاد البحري.

Abstract: French Travelers to Morocco: Moroccan Exoticism in Travel Narratives by Roland Lebel (1936) is an important historical source as it lays very significant historical, political, social and cultural events. It provides accounts on almost all the French travels from the fifteenth century to the beginning f the twentieth century. Despite the author's background as a lecturer in the Higher Institute of Moroccan Studies whose main concern was to train officials who would serve in the colonial administration later, this book remains an unavoidable reference for researchers in the field of humanities namely in history and anthropology. In this book, Roland Lebel explores many travel

narratives and unveils different delicate topics related to the political life in Morocco, the conflict over power, the private life of the Sultans (kings), the conditions of minority groups like Jews, war prisoners, and the oppressed. He also draws a comparison between the situation in Morocco and the Mediterranean area regarding the issues of peace and safety for sailors especially with the growing danger that was intrigued by the pirates from the Moroccan coast of Sali. However, this book should be read with a critical mind as it was written during the French colonialism of Morocco.

Keywords: French travels, exotic literature, travel narratives, Moroccan Jews, Almakhzen, war literature, war journalism, piracy, marine Jihad**.**

في سنة 2017 صدر عن دار الأمان بالرباط كتاب الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب (من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين) لصاحبه الفرنسي رولان لوبيل (Roland Le bill) مترجما إلى العربية، وقد صدر لأول مرة في نسخته الفرنسية الأصلية سنة 1936 بباريس، أما ترجمته إلى اللغة العربية فلم تتم إلا مؤخرا على يد الناقد المغربي حسن بحراوي. وهو كتاب من الحجم المتوسط يقع في حوالي ثلاث مائة وأربع وثلاثين صفحة؛ بين دفتيه مقدمتان إحداهما للمؤلف والأخرى للمترجم، وستة وعشرون فصلا كرونولوجيا، وجدول تاريخي بالمؤلفات المذكورة في متن الكتاب.

وأصل الكتاب، كما ورد على لسان صاحبه في المقدمة، عبارة عن محاضرات ألقاها على طلبته إذ ذاك في معهد الدراسات المغربية العليا بالرباط (Institute of High Moroccan Studies) خلال ثلاثينيات القرن الماضي. وقد اختلفت مشارب هؤلاء الطلبة الذين كانوا في مجملهم من المراقبين المدنيين العامين، وضبّاط الاستعلامات، والشؤون الأهلية، وأطر إدارة الحماية بالمغرب الذين ستُوكل إليهم مهام إدارية سامية، ويقر صاحب الكتاب أن معظم فصوله أصلها أبحاث ميدانية ستهدف إلى صياغة دروس عن الأدب الغرائبي ـــــ الكولونيالي وسيضيف إليها بعض العناصر الضرورية لاستكمال التدرج التاريخي للوقائع من أجل الربط بين أجزائها المتفرقة، وتقديمها بشكل متناسق.

يصنف هذا الكتاب ضمن جنس الأدب الغرائبي المتصل بالمغرب، والمتضمن في مؤلفات الرحالين الفرنسيين الذين زاروا المغرب، أو أقاموا فيه ما بين سنتي 1556و1935. وهؤلاء الرحالة في معظمهم ينتمون إلى فئات تشمل السفراء، والقناصل، ورجال الدين، والعبيد، والضباط، والجنود، والمستكشفين، والجغرافيين والتجار، والموظفين، والأدباء، والصحفيين، والسياح؛ وهو ما انعكس على مؤلفاتهم حيث يظهر أنها متباينة من حيث الجدة والموضوعية، فهي متنوعة بين الأخبار التوثيقية، والمقالات التصويرية، والذكريات، والمراسلات، وكنانيش الأسفار، والتحقيقات، والمذكرات اليومية إلخ، وتندرج جميع هذه الكتابات المختلفة شكلا ومضمونا؛ سواء كانت انطباعات سريعة لمسافر عابر، أو روايات موضوعية ناتجة عن إقامة طويلة في البلد بفعل الأسر، أو القيام بمهام السفارة، في عنوان عام هو أدب الرحلة.

يستهل رولان لوبيل كتابه برصد النصوص الرحلية الأولى في المغرب؛ وهي في الأصل رسائل ومذكرات مخطوطة ومحفوظة في أرشيفات المكتبات الوطنية الفرنسية، ويعود الفضل في

مراجعتها لهنري دوكاستري (H. De Castries) الذي انكبت جهوده على النبش في حفريات المصادر الغميسة لتاريخ المغرب(Les sources inédites de l'histoire du Maroc) ويؤكد صاحب الكتاب أن ما ألفه هذا الأخير، أو غيره ممن كان لهم السبق في هذا المجال لا يعدو أن يكون مقدمة، أو رابطا للمحاضرات التي سيلقيها في المركز السالف الذكر؛ مما يفيد أن هذه المحاضرات كانت أداة ووسيلة سيعتمدها الضباط، وموظفو إدارة الحماية استجابة لنظر المقيم العام ليوطي(Lyautey) الذي كان يسعى إلى ضرورة تزويد هذه الفئات بالحدّ المعقول من المعرفة باللّغات الرّائجة بالبلاد، والقدر الضّروري من تاريخها الاجتماعي والثقافي، بما في ذلك عادات وتقاليد السكّان وأنظمتهم القبلية و المخزنية وغيرها، بشكل يقلّل من اعتمادهم على المترجمين، ويسهّل مهامّهم في المناطق النّائية التي سيتمُّ تعيينهم بها.

تأتي المؤلفات الرحلية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في مقدمة النصوص الرحلية، التي وظفها أو استشهد بها رولان لوبيل في محاضراته، باعتبارها النواة الأولى التي تدور في فلكها باقي الرحلات وأهمها مؤلفات جان موكي (J.Moqet) و جان أرمان (Jean Armand)، وفرنسوا دانجي (François D'Angers)، هذا الأخير كان له الفضل في تجميع الرحلات الأولى في كتاب موسوم بـ"تاريخ بعثة الرهبان إلى مملكة المغرب"، ولعل الرابط الأساس بينها كون أصحابها انكبوا على وصف عادات وتقاليد ساكنة المغرب الحديث، ومعاناتهم معهم ومع المخزن وكذا التطرق إلى الأمراض التي كانت تفتك بهم، كالطاعون، بالإضافة إلى رصد خطة ووقائع معركة وادي المخازن، ورصد الصراع حول الحكم بين الدولة العلوية والإمارات المناهضة للمشروع العلوي في بدايته الأولى أيضا، والصراع الذي اندلع بين أفراد الأسرة الحاكمة. كما تطرق هؤلاء إلى حيثيات افتداء الأسرى من لدن عائلاتهم، ومظاهر التعايش الذي ساد إذ ذاك بين المسلمين واليهود, والجدير بالذكر أن معظم الذين دونوا رحلاتهم خلال هذه الفترة، إما سقطوا كأسرى على يد أطقم الجهاد البحري السلاوي، أو كانوا مبعوثين للقيام بأعمال السفارة. ويختم صاحب الكتاب هذا الفصل بالتذكير بأهم رحلة عرفها تاريخ المغرب الحديث؛ ويتعلق الأمر برحلة السيد جيرمان موبيت(G.Mouette) إلى المغرب سنة 1680 والتي سيعود إليها بالتدقيق في فصل لاحق.

ينتقل رولان لوبيل في فصل ثانٍ معنون "بسرود الأسر في المغرب" ويخلص فيه إلى أن معظم الأدب المتصل بالمغرب كان في بدايته مشكَّلا من سرود الأسر، أو بعثات الافتداء، ونظرا لضخامة الإنتاج الأدبي في هذا الموضوع فإنه ركز على أجود دراسة تطرقت لمحنة السيد جيرمان موبيت، وهو كتاب يعد ضمن أعمق الشهادات تأثيرا في حياة ومعاناة الأسرى الأجانب في المغرب، إن القاسم المشترك بين المؤلفات الرِّحْلية خلال هذه الفترة أنها تطرقت إلى معاناة الأسرى وواقع الجهاد البحري من خلال وصف الجانب المادي للأسطول، والجانب المعنوي للمجاهدين، والذخيرة الحربية التي كان يستخدمها هؤلاء، وأساليب المكر والخداع التي اعتمدوها للإطاحة بأساطيل بحرية رفيعة المستوى والتنظيم، كما تطرق هؤلاء إلى النهاية المأساوية التي كان يتعرض لها الأسرى؛ فمنهم من لقى نحبه، ومنهم من وجد نفسه عبدا عند السلطان كحارس شخصي سخرهم لخدمة مشاريعه العمرانية بمكناس في إطار السخرة، وحسب ذات المصادر

الرحلية فإن هذه الفئة كانت مادة دسمة لاغتناء المغاربة حيث تساق لتباع في المزاد العلني. أو من خلال افتدائهم بعد جمع الصدقات من لدن البعثات، أو توسط اليهود لفكهم. ومن جانب آخر لفت انتباه هؤلاء الرحالة نظام الزطاطة والنظام الاقتصادي السائد آنذاك بالمغرب إذ تحسر بعضهم، كما هو الحال مع الأب دو لامورسي (De La Mercy)، على الحالة المزرية التي كانت عليها الأراضي الفلاحية الواقعة بين فاس ومكناس مقترحا في ذلك الوقت أن تخصص لإنتاج الكروم. والجدير بالذكر أن هذه الرحلات ركزت بشكل كبير على مدينة مكناس، العاصمة آنذاك، والتي كان يسعى السلطان مولاي إسماعيل، حسب ما جاء في النصوص الرحلية، للسمو بها إلى مكانة رفيعة تضاهي فرساي الفرنسية، ولم يفت هؤلاء التطرق إلى الجوانب الاجتماعية للأقلية اليهودية، إذ كان لهم السبق في تناول هذا الموضوع مقدمين صفحات جديدة حول الحياة الاجتماعية والثقافية لليهود. ويخلص هذا الفصل إلى أن توغل الرحالة في المناطق الداخلية للمغرب لم يتم إلا مع القرن التاسع عشر حيث ستختلف مواضيع الرحالة من مواد تلمس الجرح الحساس المتصل بالأسرى والمسائل المرتبطة بهم إلى مواضيع مختلفة أكثر حساسية وجاذبية.

ينتقل صاحب الكتاب إلى تخصيص الفصول المتبقية لرحلات تحمل عناوين افتراضية مع إدراج أسماء أصحابها؛ ففي الفصل الثالث سيكون معرضا للحديث عن وقائع وحيثيات رحلة لامارتينير (la Martinière) وقد عنون هذا الفصل ب "رحلة رواية مغامرات بربرية" وأصل هذه الرحلة رواية في المغامرات ذات خلفية جغرافية وهي عبارة عن كتاب صغير عبارة عن وقائع حقيقية لصاحبها الذي انتهى به الحال أسيرا لدى القراصنة المغاربة الذين الزموه بممارسة مهنته كجراح داخل السفينة، ويسرد صاحب الرحلة وقائع وأحداث طاقم السفينة المغربية في المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، والتطرق إلى المعتقدات التي لازمت طاقم السفينة لطرد سوء الطالع، وهي معلومات جديدة في آداب الرحلة. والملاحظ حسب رولان لوبيل أن صاحب الرحلة تمكن من ناصية فن المزج بطريقة خلاقة بين الحقيقة والخيال مما يجعل هذا الكتيّب يسمو فوق المجلدات التي ألفت حول الأسر وسرود الأسرى.

خصص رولان لوبيل الفصل الرابع من الكتاب للمسكوت عنه في رحلة السيد موبيت، وهذه الرحلة عبارة عن كتاب يقع في حوالي ثلاثمائة صفحة نشرت بباريس سنة 1682 وهي ذات أهمية قصوى لمجريات تاريخ المغرب في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر.

يتطرق صاحب الرحلة إلى حكاية أسره، بمعية رفاقه، وقساوة تعامل المغاربة معهم، ورغم قساوة المشهد في الرحلة إلا أن صاحبها يميط اللثام عن مواضيع أقل قتامة، ونظرا لطول مدة الأسر، التي تجاوزت إحدى عشرة سنة، فقد تمكن موبيت من ناصية العربية والاسبانية مما مكنه من التعبير والاستخبار عن أحوال المناطق التي قضى بها هذه المدة؛ ومنها طبائع وعوائد الساكنة وطرائق عيشها وأسلوبها في التقاضي في المحاكم وتعاملاتها التجارية، ووقائع تاريخ الصراع الأخوي بين مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل.

أما بخصوص الفصل الخامس المعنون ب"السفارات والأدب" فرولان لوبيل يعترف أنه وجد صعوبة للفصل بين ما هو غرائبي كولونيالي في متون الرحلات المكتوبة، وما يتصل مباشرة بخانة الديبلوماسية التاريخية، وأهم حدث استوقف صاحب الكتاب هو وقائع سفارة بن عيسى

مبعوث مولاي إسماعيل إلى لويس الرابع عشر (1699ــ 1698) و التي أثارت انتباه العديد من الفرنسين الذين تفصح كتاباتهم عن جوانب من العشق والغرام الذي ارتمى فيه السلطان مولاي إسماعيل منبهرا بالأوصاف الجميلة التي نقلها مبعوثه الشخصي عن ابنة الملك لويس الرابع عشر الآنسة دو كانتي(De Kanti) (اضطرت السلطان للسفر متنكرا إلى قصر الأميرة. وسواء أكانت هذه الرواية، المتكررة في العديد من النصوص الرحلية، صحيحة أم ضربا من الخيال، فإن هذه الرحلة الغرائبية تُخفي في طياتها جوانب نقدية لسياسة مولاي إسماعيل الخارجية، ونقدا لاذعا للأخلاق الفرنسية.

تعتبر رحلة القنصل العام الفرنسي لويس دوشينيي(L .De Chénier) (30ماي 1767) آخر رحلة في تاريخ مغرب القرن الثامن عشر، وهو مؤلف سينشره بعد تقاعده بعنوان "أبحاث تاريخية حول المغاربة وتاريخ إمبراطورية المغرب"، ما زال يفرض ذاته بإلحاح لدى المؤرخين المهتمين بالعلاقات المغربية الفرنسية، وحسب رولان لوبيل فالجزء الثالث من هذا المؤلف هو الذي يكتسي أهمية قصوى حيث تقصّى صاحبه التاريخ المحلي للمغرب من زمن الامبراطوريات إلى دولة الشرفاء، متطرقا للجوانب الاقتصادية للمجتمع المغربي، ووصف الحياة البدائية للمغاربة، وجوانب من تاريخ المخزن العلوي. خلص رولان لوبيل في هذا الفصل إلى أن الإنتاج الأدبي يتقوى في فترة الأزمات ويضعف في فترات السلم مما جعل ظهور المغرب في المجال الأدبي متوقفا بالاهتمام به سياسيا.

ينتقل صاحب الكتاب في الفصول اللاحقة إلى رصد وتتبع الرحلات إلى المغرب خلال القرن التاسع عشر وأهمها رحلة الرسام أوجين دولاكروا (Eugène Delacroix) عضو سفارة م.دو مورناي، وترتبط رحلته هاته بحادث احتلال الجزائر سنة (1830) ، ولعل أهمية أوجين دولاكروا، حسب رولان لوبيل، لا تكمن فقط في اللوحات التي رسمها، وإنما في الدفتر الذي نشره على شكل "مذكرات فنان"، والمراسلات التي تبادلها مع أصدقائه في فرنسا، والتي تضمنتها "رسائل المغرب" على شكل مجلد حمل عنوان "مراسلات فنان"، ومن خلال مذكراته اليومية أسدل الستار عن العالم العتيق للمغرب من خلال خلفية الحياة المغربية ولعل هذا ما كان يغذي لوحاته الفنية.

اعتبر رولان لوبيل هزيمة المغرب في وقعة إيسلي (1844) فرصة لانتعاش الكتابة حول المغرب سواء من لدن المخبرين أو العسكريين أو دعاة المسيحية، وبهذا الصدد يمكن الحديث عن ثلاثة مؤلفات لرحالة فرنسيين زاروا المغرب في فترات متقاربة وهم م. راي(M .Rey)، وشارل ديديي (Ch.Didier)، و ألكسندر دوما(Alexandre Dumas)؛ يتناول الأول والثاني الظروف الداخلية للمغرب قبل وقعة إيسلي فيما يُصوّر الثالث عن قرب ظروف التوقيع على اتفاقية السلم التي تلت هذه الهزيمة.

بالنسبة لصاحب الرحلة الأولى فقد زار الدار البيضاء والرباط وعاد إلى طنجة راصدا في كتابه مظاهر التوتر والشنآن التي كانت قائمة في المغرب زمن الرحلة والتي كانت تنذر بمعركة إيسلي، وهو ما سيعكسه صاحب الرحلة الثانية الذي أكد في مقدمة رحلته أنه سيولي أهمية كبرى للمسألة المغربية الفرنسية، ويظهر من خلال ما دونه انحيازه إلى الطرف الفرنسي من خلال

كشف عيوب الإدارة المغربية والحالة المزرية التي كان عليها المغاربة، ذلك أن الموظفين أخلوا بواجبهم المهني، وهو ما دفعه للتعبير عن أريحيته لتقوم واقعة إيسلي من أجل وضع حد لمخاتلات السلطان الذي استسلم في وقت أقصر، وفي سنة 1846 حل بالمغرب السائح الكسندر دوما ورغم قصر مقامه بالمغرب، إلا أن رحلته مكنت من التعرف على الوجه الآخر لليهود الذين أصبحوا يتغنون في أعراسهم بحادث قصف طنجة من لدن البحرية الفرنسية، كما لم تفته الفرصة للإشادة بالدعم المادي الذي قدمه الذّمّي دافيد للبحرية الفرنسية مقابل عبوره أحياء المساجد دون خلعه نعليه، وقد اختتم كاتبه هذا برصد جوانب من المهمش في التاريخ الجزائري من خلال إماطة اللثام عن مسجوني الأمير عبد القادر الجزائري وطريقة افتدائهم، تعد هذه الرحلة حسب رولان لوبيل آخر ما كتب حول أصداء إيسلي وما تلاها من نزاع ديبلوماسي، مما سيجعلنا ننتظر إلى حين اندلاع حرب تطوان والتي ستكون مناسبة لظهور صنف جديد من الكتابة، تقوى مع انتعاش المراسلات الحربية، وضمن هذا النوع من الكتابة ظهر شارل إيريارت (Ch.Yriarte) مبعوث مجلة "العالم المصور"، حيث نشر مذكراته مرفوقة بصور في شكل كتاب نُشر سنة 1863، وأهميته تكمن في كونه يقدم شهادة حية عن أهم مراحل حرب تطوان(1859– 1860) مما جعله يتبوأ مكانة أول مراسل حربي في المغرب استطاع تقريب القارئ من مشاهد هذه الحرب القاسية. ومرة أخرى يعود رولان لوبيل لاقتفاء آثار البعثات السفارية في فصل فريد متحدثا فيه عن الحياة اليومية للباشدور داخل الأراضي المغربية عبر طريق طنجة إلى مكناس، أو فاس عبر العرائش وسهول الغرب ، أو عبر مراكش عبر أحد موانئ الساحل الغربي، ولعل اهتمام صاحب الكتاب بهذا الفصل نابع من كون كل السفراء وأعضاء البعثات الديبلوماسية الذين دونوا رحلاتهم قاموا بتصوير عبورهم لهذه البقاع، وما بين 1875 و1890 ظهرت للوجود ستة مؤلفات من هذا النوع في المكتبات الفرنسية وكلها تجمع على خطورة المنافسة الدبلوماسية للإمبراطورية الشريفة. وكامتداد للرحلات السفارية التي ظهرت خلال حقبة التنافس الامبريالي نشر بيير لوتي(P.Loti) كتابه الموسوم "في المغرب" سنة 1890، ويرى رولان لوبيل أنه حظي بمكانة متميزة في جنس الأدب العجائبي الكولونيالي الفرنسي، باعتباره أول كتاب وصفي نجح في إثارة الانتباه إلى المغرب من الزاوية الغرائبية، وأدخل المغرب إلى حظيرة الأدب الفرنسي. وبعيدا عن الرحلات السفارية ظهر شارل دوفوكو (Ch. De Foucauld) ضمن خانة الاستكشاف الجغرافي والإستعلامات العامة وقبل أن يخوض تجربته في المغرب تلقى سابقا دروسا في اللغة العربية وجمع وثائق عن المغرب بإمكانها أن تذلل الصعاب في سبيل استكشافه والاحاطة به من كل الجوانب، وقد ظل كتابه مفقودا إلى حدود سنة 1935 وهي السنة التي كان يحاضر فيها رولان لوبيل أمام طلبته وخلالها طلب منهم الرجوع إلى كتاب "في المغرب على طريق فوكو" لصاحبه لادريت دولاشارنيير أو كتاب "شارل دوفوكو مستكشف المغرب وناسك الصحراء" لمؤلفه روني بازان(R.Pazan).

ينتقل رولان لوبيل في فصل لاحق إلى رصد الرحلات التي خصصها أصحابها للنبش في حفريات المغرب المجهول وأهمها مؤلف أوغست موليراس (A .Mouliéras) وهو عبارة عن استجوابات قام بها، همت المسلمين الذين سبق لهم أن سافروا إلى منطقتي الريف وجبالة وهما

منطقتان ظلتا مجهولتين في كتب الجغرافيين مما جعل هذا المؤلف حسب لوبيل محورا لمحاضراته باعتباره مؤلفا لا يدخل ضمن أدب الرحلة، ومن بين هذه الرحلات كذلك بعثة دو سوكونزاك (De Segonzac) مكتشف الأطلس، و الإثنوغرافي إدموند دوتي(Edmond Douté) المتخصص في الظواهر الدينية في شمال إفريقيا. لقد ركز رولان لوبيل على هذا الكتاب وأعطى مؤلفه ما يستحق من العناية من خلال المحاضرات التي كان يلقيها على طلبته؛ فالكتاب في نظره إطار مرجعي لسياسة التهدئة (la pacification) التي نهجها ليوطي فيما بعد، كما أنه دليلٌ لفهم الساكنة المراد احتلالها واستيعاب ثقافتها، بل أنه يتقاطع مع السياسة الحضارية للمشروع الفرنسي بالمغرب.

ومن المغرب المجهول ينتقل رولان لوبيل إلى المغرب العتيق، حيث رصد في كتابه كل المؤلفات التي تناولت هذه البقاع وتوقف عندها بالدرس والتحليل؛ وأهمها كتاب "المغرب اليوم " لأُجين أُبان (E.Aubin) وميزته أنه يعرض لآليات الحياة المغربية والحكومة الشريفة. وكتاب القنصل هنري غايار (H.Gaillard) الذي نفذ فيه عميقا إلى الروح القديمة لفاس العاصمة الدينية والسياسية. وكتاب غابريل فير(G.Veyre) مهندس مولاي عبد العزيز والذي أعطى نظرة دونية حول بلاط السلطان وهو كتاب لم يرق إلى المستوى المطلوب من لدن الجهات العليا في الإدارة الفرنسية حسب رولان لوبيل؛ إذ لم يتفطن صاحبه إلى الدور الذي كان عليه أن يقوم به لصالح فرنسا.

ومع عهد الحماية لم يعد الأمر حسب، رولان لوبيل، يتعلق بنصوص رحلية وإنما بكتب ذكريات وفي هذا السياق يندرج كتاب "أصول المغرب الفرنسي" لروني تايلانديي (Saint René Taillandier) الذي يتمحور حول وقائع بعثة (1906/1901)، ورغم مكانته في الجهاز الحكومي الفرنسي إلا أن ما قدمه لا يشفي غليلا بخصوص السياسة المغربية العتيقة، وهو ما جعل رولان لوبيل يحيط طلبته علما أنه لابد من الرجوع إلى كتاب دولامارتينير سنة 1882 الأركيولوجي الذي مكنته مهمته من التجول عبر أرجاء المغرب بكل أريحية والاهتمام بالتاريخ المحلي من خلال التركيز على الخبايا الصغيرة لفهم الأحداث الكبيرة.

وفي فصل آخر ركز رولان لوبيل على الرحلات النسائية ويسرد تفاصيل رحلة السيدة لادريت دو لاشاريير(Ladreit De Lacharrière) التي تزامنت مع ظروف صعبة شهدها المغرب سنة 1911 وهي سنة تذكر حسب صاحب المؤلف بانفلات أمني وقع في فاس وباقي أرجاء المغرب، مما يفسر أهمية هذه السيدة التي جابت الطريق العسكري وحاولت حسب صاحب المؤلف أن تقرب القارئ من قادة الحملة العسكرية الفرنسية. إنه كتاب يرصد المغرب البطولي حسب ذات المؤلف وميزته أنه يقدم نفسه كيوميات خام لم تخضع لأي تغيير أو إضافة. وخلال هذه الأثناء ظهر في الساحة رحالة آخر استقر به المقام ما بين فاس ومراكش، يتعلق الأمر بالمثقف أندري شوفيريون (André Chevrillon) الذي تمحورت كتاباته حول المغرب ضمن ما أسماه رولان لوبيل بالتحليل النفسي للمغرب في لحظة حرجة من تاريخه. وقد توج شوفريون مساره في المغرب بتأليف كتابين جادين هما "أفول الإسلام" و "مراكش بين النخيل" وتدور أحداثهما حول التاريخ المحلي لهاتين المدينتين خلال مدة مقامه بهما محيطا برؤية ثاقبة وفهم

عميق ودقة في الملاحظة كل صغيرة وكبيرة تهم المغرب. أما بالنسبة للأدب الحربي فرولان لوبيل يرى أنه تزامن مع الحملة الفرنسية على سهول الشاوية و وجدة، وأهم المؤلفات بهذا الصدد كتاب فريد للقبطان إيميل نولي (E.Nolly) "رجال الحرب في المغرب" وهو عبارة عن مقالات نشرت قبل في مجلة باريز، وميزة هذا الكتاب حسب رولان لوبيل أنه تطرق بالرصد والتحليل للطّابور الحربي الذي أنزل بميناء الدار البيضاء سنة 1911، ولم يخل الكتاب من الإشارة إلى تضحيات الجنود الفرنسيين ووصف نفسيتهم أثناء أداء مهامهم في ظروف صعبة. ونظرا لكثرة الإنتاج في مجال الأدب الحربي فإن رولان لوبيل انتقى أجود ما كتب في هذا الصدد، حسب زعمه، معتمدا معايير محددة سلفا، ويتعلق الأمر بالمؤلفات التي ألفها محاربون أو مراسلون حربيون معتمدين من لدن إدارة الجيش الفرنسي؛ وفي نظره هناك كتب بعينها يمكن الوقوف عندها؛ كرسائل جاك روز(J.Roze) المنشورة سنة 1912 والتي تتمحور مضامينها حول أحداث عمليات الحدود الجزائرية المغربية، وعشية عملية التهدئة الكبرى تضاعف الإنتاج الأدبي الحربي نتيجة كثرة تقارير الضباط المشاركين في هذه العملية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، تقارير الجنرال داماد (Damad)التي يمكن قراءتها ضمن أوراق القبطان كراس (Kraci)ولرصد وقائع حملة الشاوية ألح رولان لوبيل في كتابه، الذي قلنا عنه سابقا انه محاضرات موجه لطلبته لتدليل الصعاب أمام مهامهم الإدارية أو العسكرية، بضرورة العودة إلى مذكرات الكولونيل أزام (Col.Azam) وكذا المقالات التي حررها الصحفيون والمنشورة في جريدة "رواية الشاهد". غير أن رولان لوبيل سيبدي أهمية كتابين كان بيير خورت(P.Khorat) قد استخلصهما من مذكرات رحلته ذات الصلة بحملتي 1912/1911، الأول بعنوان "في صفوف جنودنا" 1913، والثاني موسوم ب" مشاهد من التهدئة المغربية" 1914. وأما عن السرود الحربية فلوبيل تحدث عن كتابين أو ثلاثة حول هذا الجنس الأدبي الأول لِلْكابرون(L.Capperron) "في نجدة فاس" 1912، والكتاب اللامع على حد تعبير المؤلف، "الأيام الدامية لفاس"1913، للكولونيل أزان، وهما كتابان، في نظره، يعدان بمثابة نموذجين لمذكرات حملة عسكرية تطبعها الحيوية واليقظة والرصانة. يرى هذا الأخير أن سنة 1914، التي تزامنت مع إعلان الحرب في فرنسا، غيرت مجريات الأحداث في المغرب، وهو ما جعله يحث طلبته على ضرورة الرجوع إلى كتاب روني فانلاند (R.Vanlande) المعنون "في المغرب تحت قيادة ليوطي" حيث يحكي صاحبه وقائع احتلال بلاد زيان والأطلس المتوسط والحالة النفسية التي كان عليها الجنود الفرنسيون وشهادته الخالية من المجاملة، على حد تعبير لوبيل، في حق قائد الطابور الحربي. وقد اختتم لوبيل حديثه عن الأدب الحربي بضرورة العودة إلى مؤلفات مارسيال دوز(M.Doze) الرجل الذي امتلك معرفة جيدة بالمغرب، ولعل صفحات عن اللفيف الأجنبي لتعد أجمل ما فيه يقول المؤلف. وصحبة الطبيب بول شاتينيير (P.Chatinières)ينتقل بنا صاحب المؤلف من الأدب الحربي الذي أُنتج زمن الحملة العسكرية، إلى أدب آخر حرر في أوقات الاختراق السلمي لبلاد المغرب؛ هذا الطبيب حسب المؤلف رسخ جوا من الثقة بين الفرنسيين والمغاربة وهي التي مكنته من نشر كتابه المعنون "عبر الأطلس الكبير المغربي"1919، فقد تنقل هذا الطبيب بمعية الكولونيل دو لاموط (C. De Lamothe)

إلى مجال سوس ثم بعد ذلك إلى تِلوات حيث قصبة التهامي الكلاوي، فورزازات حيث يقدم شهادات حية عن طريقة تقديمه للعلاجات والاسعافات الأولية للمغاربة بمن فيهم النساء، ومحاربته لوباء التيفوس في منطقة تارودانت ابتداء من سنة 1928، إن أهمية ما كتبه هذا الطبيب حول المغرب تكمن حسب المؤلف في شخصيته المنعزلة أثناء اشتغاله ولعل الرسالة التقديمية التي وضعها ليوطي بمناسبة صدور مؤلفه لخير دليل عن ذلك يقول المؤلف.

وفي فصل معنون ب"بلاد المفارقات" سيسلط رولان لوبيل الضوء على بعض الفنانين الفرنسين الذين كان لهم نصيب في إغناء الساحة الأدبية والتاريخية بمؤلفاتهم المتنوعة ويأتي في مقدمة هؤلاء المهندس المعماري طرانشان دو لونال(Tranchant De Lunel) الذي حل بالمغرب ما بين 1901 و1902، وعين سنة 1912 مديرا لمصلحة الفنون الجميلة وهي المهمة التي ظل يزاولها إلى حدود سنة 1923. وبعد سنة من إنهاء مهامه الإدارية سيؤلف كتابه الموسوم "في بلاد المفارقات". يكتسي هذا الكتاب أهمية قصوى، حسب لوبيل، إذ كشف فيه صاحبه المفارقات التي ظلت تعانيها الإيالة الشريفة ومنها الاتصال الذي حدث بين فرنسا والمغرب متسائلا عن الأسباب التي مكنت حضارتين مختلفتين زمانا ومكانا من الاستمرار. وفي فصل آخر معنون بالثلاثية المغربية لجيروم وجان طارو، (J.et J.Tharaud) والمقصود بها مؤلفاتهما الثلاثة (الرباط أو الأوقات المغربية، مراكش أو سادة الأطلس، فاس أو أثرياء الإسلام) يسلط رولان لوبيل الضوء على أهمية الإنتاج الأدبي لهاذين الأخوين إلى درجة أكسبهما حق المواطنة بفعل الإقبال المتزايد على إنتاجهما سواء في الرباط أو باريز، وبخصوص الأدب السياحي تطرق رولان لوبيل إلى عدة مؤلفات تندرج ضمن هذا الجنس الأدبي الجديد و أهمها كتاب الفرنسي كيديك بعنوان "دليل المسافر إلى المغرب" والسلسلة التي حررها الكونت بيرينيي (Camte De Périgny) مابين1917و1919 تحت عنوان "في المغرب" و الكتاب الذي نشرته دار هاشيت (Hachètte) ضمن سلسلة الدلائل الزرقاء بعنوان "المغرب" وهو بمثابة وصف للجنوب المغربي، لقد سعى هؤلاء إلى خدمة راحة وطمأنينة السياح الأجانب الذين سيتوافدون على المغرب تباعا خلال القرن العشرين، غير أن هذا النوع من الأدب يتراوح بين ما هو غرائبي ساذج، وبحث رصين ومتفهم حسب رولان لوبيل.

وفي الفصل ما قبل الأخير تطرق رولان لوبيل إلى المقالات التي صدرت سنة 1930 في شكل كتاب بعنوان "أحاديث لأحد قدماء المغرب" لصاحبه الذمي موسى ناهون (M.Nahon) الذي اشتغل في بدايته معلما تم معمرا بأراضي سهل الغرب عائدا إليه من الجزائر بعد عقد معاهدة الحماية، وأصل هذا الكتاب مقالات واظب صاحبها على نشرها في جريدة لافيجي ماروكان، إن الهدف من استحضار هذا الكتاب حسب رولان لوبيل، هو التعريف بالمعمر وكشف وجهه الإنساني من خلال نموذج الذمي ناهون؛ فالمستوطن يقوم بعمل مادي ملموس، ومهامه اليومية في البادية تبدو شاقة ومع ذلك فهو لا يحظى باحترام "الأهالي" وساكنة الحواضر، وموسى ناهون فالأمر لا يعدو أن يكون مجرد سوء تفاهم لا يمنع من إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المعمر في إطار المشروع الفرنسي الذي يشارك فيه بحضوره وعنائه.

اختتم رولان لوبيل مؤلفه بتخصيصه فصل فريد للنبش فيما ألفه أوبير ليوطي فيما بين 1900و1926 الذي تَدَرَّج من جنرال بالجزائر ومدغشقر إلى مقيم عام بالمغرب بين 1912و1925، ويعتبر كتابه "كلمات من الميدان" الذي نشر سنة1927 واحدا من إنتاجاته التي استدعت توقف رولان لوبيل وهو يحاضر أمام الإداريين والعسكريين في معهد الدراسات المغربية العليا بالرباط مذكرا إياهم أنه كتاب يسمو فوق كل الكتب التي تطرق إليها. ولربما التطرق إلى الإنتاج الأدبي عند ليوطي في نهاية الكتاب له ما يبرره إذ كان الغرض من ذلك أن يحدو طلاب رولان لوبيل حدو هذا المقيم العام الذي اعتبر نفسه "حيوانا ميدانيا" وعبر في أكثر من مقام بضرورة ترك هامشٍ من الحرية للمتعاونين، واعتماد مبدأ الليونة في تطبيق القوانين سيما وأن المغرب بلدٌ حديث الاستعمار، مع إلحاحه المستمر بمنح مناصب المسؤولية وفق ما يتوفر عليه الشخص من قدرات، وليس بناء على رتبته العسكرية أو شهاداته. إنها رسالة وجهها رولان لوبيل لطلبته مستشهدا بالخطب التي القاها ليوطي بين 1900و1926، فالفرنسيون الذين ستسند لهم مهام المسؤولية والقيادة الميدانية لا مجال أن يفكروا بمنطق العقلية التراتبية أو الوظائف السامية في تدبيرهم لمقاطعاتهم أو النواحي التي سَتُسند إليهم.

خاتمة:

ختاما لما سبق تعتبر الترجمة العربية التي قام بها الناقد حسن بحراوي لكتاب (الرحالة الفرنسيون في بلاد المغرب)، لصاحبه رولان لوبيل، إضافة نوعية للمكتبة العربية والمغربية على وجه الخصوص، ويتضح أن المترجم قام بمجهود مضنٍ لا يقل عن ذلك الذي قام به رولان لوبيل الذي كان له الفضل في تجميع وتصنيف وتحليل الرحلات التي قام بها الفرنسيون إلى بلاد المغرب ما بين القرن السابع عشر والقرن العشرين، فالباحث اليوم ومن خلال هذا الكتاب يسهل عليه جرد وتصنيف هذه الرحلات والذهاب إلى مصادرها الأم دون عناء، ومن جهة أخرى فالملاحظ أن هذا الكتاب لا يمكن بتاتا أن نخرجه من خانة الإنتاج الكولونيالي الموجه لخدمة المشروع الاستعماري الفرنسي بالمغرب، وبالرغم من أن رولان لوبيل انتقد وأثنى على البعض ممن تم الاستشهاد بمؤلفاتهم ليبرز مدى موضوعيته في تحليل وتمحيص، وأحيانا في نقد هذه المصادر، إلا أن مرجعتيه وخلفيته تكشف عنها الجهة المتلقية وأغلبهم من ضباط الشؤون الأهلية ورؤساء النواحي الذين أسندت إليهم مهام تدبير المغرب زمن الحماية الفرنسية، كما لا يمكننا أن نرتاح إلى مظان هذا الكتاب ما لم تتم مقابلته بالوثائق الوطنية والمخطوطات التي تزامنت مع هذه الرحلات، وعلى مستوى الشكل فإن الكتاب موضوع القراءة يحتاج إلى مماثلة أسماء الأعلام الواردة فيه باللغة الفرنسية حتى لا يقع الخلط في بعض الأسماء المتشابهة . وأخيرا فإن الكتاب يطرح قضايا مشوقة ما تزال بكرا في منظومة البحث العلمي، يمكن أن تكون مشروعا لأطاريح جامعية؛ كموضوع الأدب الحربي والأدب السياحي الكولونيالي والصحافة الحربية وموضوع الأسرى والعبيد وتاريخ الأقليات.